سلسة

سر القدر في القرآن الكريم

للشيخ:



سلسلة مقالات

(سر القدر في القرآن الكريم)

لفضيلة الشيخ:

أبي قتادة الفلسطيني

عمر بن محمود أبو عمر

– حفظه الله –

(٨ مقالات)

سر القدر في القرآن الكريم (١)

[٣ مايو ٢٠١٨ — ١٨ شعبان ١٤٣٩]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

من المقرر أن الله تعالى أظهر شرعه للخلق، وأبانه أحسن إبانة، فلم يترك قليلاً مما يحتاجونه من علمهم بما يحب الله تعالى أو يكره، وذلك لحاجتهم لهذا الشرع في كل أحوالهم، هذا مع تفاوت هذه الإبانة بحسب ما هو ضروري أو غير ضروري، فما اشتدت له الحاجة أبانه نصاً ظاهراً لا خفاء فيه، بل عدد صيغ الخطاب له، وما ينزل عن مرتبة الضرورة جعل فيه بعض خفاء، فتنة للناس وابتلاءً لهم، لتعريف الناس بمقاماتهم في الفهم عن الله، ودرجة قربهم علماً وذوقاً من الله تعالى، ولما كان ما يحيط بالمرء في الوجود شيئان، هما شرعه وقدره، فإنه سبحانه أبان عن قدره إبانة تشابه شرعه، وأقام في قدره من البلاء ما أقامه في شرعه منه، وبقي منه قدر اختص الله به دون خلقه ابتلاءً وامتحاناً، وهو جانب من الإخبار الإلهي لا ينفع معه إلا التسليم التام لتحقق العبودية، وكلما كان العبد أقرب للفهم على أقداره كان أكثر تسليماً لشرعه وإدراك حكمته وعلله، فحق الأقدار مع العبد أن يسلم، ويتوكل، ويصدق، ويرضى، والقدر هو سر العبودية، إذ لا تستقيم العبودية في قلب العبد حتى يسلم في قلبه لفعل الله في حال العجز عن الفهم والإحاطة.

ومن تدبر حال الخلق مع القدر كما جاء في القرآن علم أن جانب البلاء فيه أعظم، وأن جانب التسليم فيه أوسع، فمهما بلغت درجة العابد من القرب مع الله فهو ممنوع من إدراك الكثير من الأقدار حال وقوعها، ولا يسعه معها إلا أن يدعو ويستغيث، ويرجو ويخاف، ويرقب مع إخبات وتقوى، ويقلب نظره في علامات هي إلى الخفاء أقرب لعله يستطلع ما سيكون، غير جازم إلا بكليات جريان السنن في الوجود.

وهذا باب من التسليم تكرر ذكره في القرآن كثيراً، وهو باب من فتنة الخلق قلما يلتفت له الناس، بل يعجزون عن تحمل الكثير من مقدماته، لأنها مع جانب الإيمان تكون المقدمات ألماً وبلاءً وتعباً، فكيف لهم ترقّب النعيم من خلال البلاء، وكيف لهم ترقب الفرج من خلال سدف الظلام!

الذروة

هذه الكلمة فيها الكثير من السر في هذا الباب.

تلك الذروة التي تجثم على القلب فتصرخ نفس صاحبه: متى هو؟!

ذروة تنسيه كل الوعود، مع ثقته بأنها الحق، فتصير: (**إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**).

ذروة توقفه قائلاً: (**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**).

ذروة توصل إلى التساؤل الذي يوجب الاستغفار والصدقة: "**ألسنا على الحق! أو ليسوا على الباطل!**"

هذه هي محطات المرء في سلوكه طريق الدعوة والجهاد، بل سلوكه دروب الحياة كلها، إن لم يحضر لها نفساً أشربت حب الله والدار الآخرة سقطت في مضايق الطريق، فليس هناك من درجة تتجاوزها إلا وبعدها ما هو أعظم منها.

ومن تفكر في فتنة الأولياء، بل الأنبياء، بل الملائكة كما سيأتي، علم أن أعظم بلاء هو تسليمهم للقدر، وأن حالاتهم مع سره وخفائه هي العجز الذي يظهر فيه العبد ضعيفاً واقفاً على باب المن والكرم الإلهي.

مع القدر الخفي، يقول الرسول عن الرسول: (**يرحم الله لوطاً، كان يأوي إلى ركن شديد**) [صحيح البخاري].

مع القدر الخفي، تقول الملائكة: (**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**)، ويأتي الجواب الإلهي: (**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**).

مع القدر الخفي، يجيب النبي: (**أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**).

فهذه محاولة لقراءة سر القدر في القرآن الكريم، على هذا المعنى، لعل العبد يزداد تسليماً، وثقة، وإخباتاً، فالحال دال على أنّ الكثير من الأقدار العجيبة تنتظر وراء باب الخفاء للظهور، ليتحقق قوله تعالى: (**قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**).

سر القدر في القرآن الكريم (٢)

[٤ مايو ٢٠١٨ – ١٩ شعبان ١٤٣٩]

قال تعالى: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**).

هذا أول خبر الإنسان، وفيه حكمة خلقه وإيجاده، وفيه بيان عجز الخلق من الملائكة في إدراك سر هذا الخلق، وقد تكرر هذا الخبر في سور كثيرة، منها ما ذكر في سورة الأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص، وفي كل موطن علم جديد، وتأسيس لخبر آخر، لكن هاهنا ذكر تفصيلي لما نحن بصدده، وهو خفاء السر الإلهي في باب القدر على أقرب الخلق إلى ربنا، وهم الملائكة.

وأقرب ما يقال هاهنا مما نحن فيه، أن الملائكة لم يكن في علمهم الذي علمهم الله إياه من أسمائه وصفاته إلا أنه يحب المدح والحمد والتنزيه، ولذلك قالوا: (**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**)، وهم قائمون بما يحب الله ويفرحه ويرضيه، فلم الخلق الآخر، وهم من يغلب عليهم اقتراف ما يغضبه ويكرهه!.

الإنسان بالنسبة للملائكة قدر آخر، لم يفهموا حكمة وجوده، ولا تعلق هذا القدر بأسمائه وصفاته، ولذلك تساءلوا تعلماً، وليس اعتراضاً: (**أَتَجْعَلُ فِيهَا...**).

ومن المعلوم أن الملائكة يشهدون الكثير من التقدير، بسماعهم كلمات الله القدرية من الله، ويشهدون تنزلات هذه الأقدار، وبما جرى من خلق سابق، فقد علموا أن هذا الخلق الجديد (**يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**)، والله لا يحب هذا ولا يرضاه.

والقصة بعد هذا معلومة لكل مسلم، ولكن السر في هذا الباب قوله تعالى لهم: (**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**).

في الابتداء يحب ربنا سبحانه أن يعظّم، ومن تعظيمه الذي يليق بجلاله أن يختص بمدح لا يمدح به سواه، وأعظم المدح له أن يمدح نفسه (**لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**) [صحيح مسلم] ومن المدح الخاص أن يقول العبد: إن الله يقول: (**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**).

وواجب هذا القول، وذلك حين العجز عن بلوغ مراد الله في الأقدار هو التسليم.

هكذا بدأت حكمة الله تعالى في تقدير خلق الإنسان، وذلك بسر لا يعلمه إلا الله، ويعجز أعظم العالمين به وهم الملائكة إدراك سر هذا التقدير، فوجب حينها التسليم.

قوله تعالى (**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**) يعني أن هذا المخلوق يحقق في وجوده غير ما تقولون من إفساده وظلمه، بل يحقق معانٍ أخرى يحبها الله، والله جل في علاه لأنه الأعلم بنفسه، لا يجري الوجود إلا على معنى ما يحقق حبه ورضاه، ويحقق صفاته وأسماءه.

الله غفور

هذا يعني وجود عبد يذنب، فيستغفر، فيغفر الله له.

والملائكة لا يحققون هذا الاسم الذي يحبه الله.

العبد حين يذنب يغضب الله، ولكن حين يستغفر يفرح الله فرحاً لا يتحقق من فرحه من تسبيح الملائكة الذي لا ينقطع، فهذا رضىً آخر، وفرح آخر.

فسر القدر مستور في أمرين: أن يمدح الرب بأنه يعلم ما لا يعلمه أحد، وهذا يوجب التسليم، والتسليم يفرح الرب فرحاً يليق بكبريائه، ويليق بعزته، فالمتكبر والعزيز يفرحه بأن يكون الواحد الأحد.

والثاني: أن مآلات الأقدار تظهر آثار صفات الله في الوجود، وذلك بأن يغفر، ويعذب، ويعطي ويمنع، ويقبض ويبسط.

في سورة يوسف ذكر الحكم الإلهي بنوعيه (كما في الكثير من القضايا القرآنية وتعدد أنواعها، تذكر في السورة الواحدة): ذكر الحكم الشرعي (**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**)، وذكر الحكم القدري (**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**).

الحكم الشرعي خوطب به الكافر ليفهم معنى العبودية، والحكم القدري خوطب به المؤمن ليفهم أعلى مقامات العبودية.

وهاهنا جرى ذكر الامتحان القدري للملائكة (**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**) ذكراً يوجب عليهم التسليم، ويعلم الناس أن أقدارهم مع الوجود فيها سر الخفاء الموجب للصبر والاحتساب والتسليم.

سر القدر في القرآن الكريم (٣)

[٥ مايو ٢٠١٨ — ٢٠ شعبان ١٤٣٩]

قال تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

في هذا الخبر عن أبي الأنبياء عليه السلام، بيان خفاء جريان العطاء من النعم للخلق، وأن إبراهيم عليه السلام، وقد رأى اختصاص الإمامة بشرط عدم الظلم، ظن أن بقية ما هو من النعم المادية يجري على هذا المعنى من وجود شرط العدل، فقوّم الله ظنه بقول: ومن كفر، أي له من العطاء الدنيوي ونعيمها.

وهذا الوهم الجاري في الخلق اليوم، وفي كل زمن، من ربطهم بين غدق الدنيا ونعيمها، وبين رضا الله تعالى، هو ما يوقعهم في تعاقب المعاصي وعدم التوبة، مع أن القرآن يقرر أن الأصل في العطاء الدنيوي أن يجري غدقاً للعاصي، لولا ما في هذا من فتنة للناس، قلما يخرج منها أحد إلا القليل، لقوله تعالى: (وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ).

وهذا من سر القدر الذي فيه معادلة غريبة: رحمة الله بالمؤمنين الضعفاء، وإغواء الله تعالى لطالبي الدنيا دون رجاء الدار الآخرة.

هذا الخبر القرآني المتقدم عنواناً هنا فيه بيان خفاء المعاني الدقيقة على الخلق، حتى لو كانوا أنبياء، وهذا المعنى سيتكرر في مواطن عدة، وستأتي، منها: خفاء الشرط على نوح عليه السلام لما قال: (إِنَّ

ابْنِي مِنْ أَهْلِي)، وخفاؤه على عمر رضي الله تعالى عنه لما جادل في صلح الحديبية لما قال: "**ألم يعدنا أن ندخل المسجد الحرام؟!**"

وهذا هو ما كان يخافه الحبيب المصطفى في غزوة بدر، مع وعد الله تعالى له بالفتح: (**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ**)، فمع الوعد، فقد قام يدعو مناشداً ربه مناشدة شديدة، لم يفهم وجهها أبو بكر رضي الله عنها، ولذلك قال: "**كفاك مناشدتك ربك، فسينجز الله لك ما وعدك**".

فأنت تعلم أن يقين النبي صلى الله عليه وسلم على وعد الفتح أعظم بكثير من يقين أبي بكر، ولكن أبا بكر نظر في الوعد، فغلب عليه هذا المعنى، ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خوف ذهاب الوعد بتخلف شرط، هذا الشرط هو على معنى ما قاله الله تعالى لإبراهيم: (**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**).

ولذلك رأى أن المقام يحتاج دعاء ثبوت الوعد، ورجاء عدم تخلفه، بالخوف والإنابة والمناشدة، فهذا حق العبد عند الوعد، يزداد تذللاً ليقع، ويخاف رفعه بسبب تخلف الشرط، وهو مقام النبوة، والذي هو أعظم من مقامات أخرى تحصل للخلق، وتغلب على قلوبهم.

تفهم هذا من كلامه صلى الله عليه وسلم: (**اللهم أنجز لي ما وعدتني**) [صحيح مسلم]، (**اللهم انشدك عهدك ووعدك**) [صحيح البخاري]، ثم انظر إلى سياق الخبر في موطنه، ترى هناك وعداً بإحدى الطائفتين، ثم هناك مناشدة جليلة كريمة مبكية، فيها التذلل والإخبات، وموقف العبد في أشرف منازله، ثم يخرج بعدها قائلاً –بأبي هو وأمي–: (**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**).

وذلك لتعلم أن نزول الوعد يحتاج لعبادة خاصة لتحققه، حتى وهو وعد سابق.

خفاء المعاني في موضوع القدر المتعلق بالوعد، هو ما يمنع الاطمئنان على مجرد الوعد، والذي يقع به الكسل والخمول، وارتقاب الوعد بلا عمل، فيقع تخلف الوعد لتخلف شرطه، والناس من جهلهم يتساءلون: لم وقع هذا؟!

ما قاله تعالى لإبراهيم عليه السلام ينفي مذهب الجبر، وهو أن زعامة رجل تعني أن الله اختاره، ولم يختره إلا لرضاه عنه، واستحقاقه هذا المقام، فما طلبه الخليل عليه السلام هو إمامة الدين، والتقوى، والعلم، فهذا المقام يرفع الله له عباده المستحقين له، وليس هذا مقام إمامة الدنيا ورياستها، فلا يكون

الرجل إماماً في هذا الباب إلا برفعة ربانية، لا يكونها الرجل حتى يستحقها، ولذلك على الناس أن يعلموا أن هذا المقام ينفي خبثه كما تنفي المدينة خبثها، يقوم بذلك ربنا بالأقدار العجيبة التي تكشف الخبيث في هذا الباب، ومقام وراثة النبوة كمقام النبوة في هذا المعنى، لا يدعيه كاذب إلا فضحه، وأكذبه الله كما أكذب مسيلمة، يخزيه، ويذله، ويقدر له من المقادير ما يكشفه حتى لأدنى العقول، فلا يحتاج الناس فيها إلى كبير عناء، ومن تفكر في هذا في تاريخ العلم ووراثة النبوة وجده بيناً واضحاً، وكنت دائماً أرد على الشباب المتحمسين في كشف ما يعلمون من البعض، وخفاء حالهم على آخرين: انتظروا، سيأتي منهم ما لا يخفى على أحد، وسترون منهم الشر الظاهر الذي يصنع لهم الفضيحة، كشأن الكذابين في ادعاء النبوة، أو الكذابين على النبوة.

هذا سر القدر في العطائين، العلم والدين، والثاني: متعة الدنيا وزهرتها.

سر القدر في القرآن الكريم (٤)

[٦ مايو ٢٠١٨ – ٢١ شعبان ١٤٣٩]

قال تعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

هذا دعاء شرعي من نبيين عظيمين، هما خليل الله إبراهيم، وابنه الذبيح إسماعيل، عليهما السلام، وهو يتعلق بخلق قدري، وبفعل رباني، فيه النصرة لدين الله، والهداية للخلق، ونشر الشرع الرباني.

في سورة الأنبياء، وقد أكرمني الله بتفسيرها، ذكرت هناك اختصاص السورة بشوق الأنبياء الإنساني والبشري، وبحاجاتهم الحياتية، مع اختلاط هذه الحاجات بحالة التعبد الإيماني، فهذا نبي يطلب الولد الذي يرثه، كشأن زكريا عليه السلام، وهذا يطلب الشفاء من مرضه، وفيها ذكر مطالبهم وأدعيتهم التي حققها الله لهم، وإبراهيم عليه السلام إمام عظيم شرحت حياته في كل أطوارها لأهميتها في تمثل القدوة لمن بعده، ويكفيه شرفاً في هذا الباب، أن قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعد شرح حاله في سورة النحل: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

وهذا الدعاء المتقدم من هذين النبيين قد تحقق ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر هذا في موطنين:

في سورة البقرة في قوله تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

وفي سورة آل عمران في قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

هذا الدعاء الذي ذكره الله تعالى على سبيل المدح لمقام إبراهيم وإسماعيل، وهو يعني قبوله، وأنه سيقع لا محالة، هذا الدعاء الشرعي، كم احتاج من زمان قدري حتى يقع قدره؟

لقد جرت النبوة في فرع إسحاق عليه السلام، فكانت في يعقوب ابنه، وجرت سائرة في بني اسرائيل، كلما مات نبي بعث الله نبياً آخر يسوس الناس ويقيم فيهم الشرع، وغابت النبوة العظيمة الموعودة بإجابة هذا الدعاء زمناً طويلاً، من إسماعيل عليه السلام حتى كانت في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

القدر له سره المخبوء، يمشي بحسب الحكمة، فيخفى شأنه على الناس، ويغيب عن أنظارهم، حتى يقع في وهمهم أن أمر ما يطلبون وينتظرون قد ذهب ولن يكون، ولكن خلق القدر وتدبيره المغيب عن العيون البشرية التي تعيش عالم الشهادة يكون جارياً في الفعل ليكون في وقته المقدر له.

هناك عالم مشهود، يلاحظه الناس، وهناك عالم الغيب، يخفى عنهم، هو سر الغيب، وسر القدر، وسر الابتلاء لهم، لا يجري على معنى التدبير المتراكم في عالم الشهادة ليبصروه متدرجاً، فلا فجأة، بل هو يجري على معنى التدبير الغيبي، ويظهر للناس على معنى الفجأة غير المرتقبة، بل من تأمل جريان هذا النوع من القدر علم أن عالم الشهادة يجري في ظاهره لمستقر يخالف ما يدبر من عالم الشهادة المنظور، ولذلك تقع الصدمة، وتتحقق الفجأة.

وهذا بيّن هنا، فالنبوة تجري في فرع من الأبناء، ويكون فيهم الكتاب، ويتعرفون على النبوة عن قرب، ويتحضرون لها لأنهم أهل اختصاص بها، وهم أهل شريعة غيبية، ويقابل هذا فرع خلا كلياً من النبوة بعد إسماعيل عليه السلام، هم أميون، لا كتاب لهم، ولا نبوة فيهم، وليس لها من خبر عندهم إلا ظلالاً ضعيفة، وهذه الظلال مزورة مبدلة مطموسة، ومع ذلك يخرج منها النبوة العظيمة، ويتحقق الدعاء بعد سنين، يجزم المخلوق الضعيف أنها صعبة الحصول.

سر القدر هنا هو امتحان الناس بتصديق الخبر، تطحنه السنون، وتغالبه الأقدار التي تضاد الوعد، وتسير على وفق يخالف ما وُعد به، كل ذلك ليبقى الغيب كاسمه غيباً، به يمتحن الخلق.

الأمور مع قدر الابتلاء الإيماني ليس حملاً لجنين يبصره الناس متعاظماً حتى يكون يوم الميلاد، فلا يفاجئهم، بل هو على الضد من ذلك في هذا الباب، إذ تسير مقدماته على وجه يخالف ما ينتظره الخلق، ثم تكون الخاتمة التي قدرها الله نصراً للمؤمنين وهزيمة لأعدائه.

(حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ) هذه مقدمات النصر، وهذا يعني أن أفق التغيير مسدود مغلق.

"**الفجأة**"، ليست في الزمن، ولكن في النتائج على خلاف المقدمات، فجأة يسبقها يأس وقنوط، أن الأمر قد استقر على حال من الجريان، ولن يقع التغيير.

ثم "**فجأة**" من جهة العطاء، فهذا إسماعيل عليه السلام يقع من ذريته بعث النبي الخاتم العظيم، والذي يتحقق به شروق شمس الحق من فاران، كما وعدت الكتب السابقة.

الفعل الخفي في هذا الباب وهو عالم الغيب لا يعجزه أن يحول السجين فجأة إلى عزيز المملكة، ولا الأمي إلى أعظم معلم، ولا الضعيف إلى أعظم القوة، فهو الله القادر على كل شيء، وهو مع هذا يجريها على معنى اللطف ولكن فيها الغلبة.

مع طول الزمن يحصل في الخلق أمران: خداع للظالم، فيستمرئ المعصية (**ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) فيفسد، ويجرم، ويزداد غلواً في معصيته، وبهذا يتحقق الإعذار الإلهي، ويقابله يأس يغزو القلوب، وإحباط يعتري النفوس، وهنا تتجلى أحدية الرب بالعلم، وأحديته بالقدرة المحيطة للخلق، فيتحقق قوله (**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**).

وبهذا يقول المؤمن: (**لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**).

سر القدر في القرآن الكريم (٥)

[٨ مايو ٢٠١٨ – ٢٣ شعبان ١٤٣٩]

قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ).

يجري القدر الإلهي في بعض وجوهه على معنى التذكير والعظة الربانية للخلق، ليتعلموا ويتعظوا، ومما لا شك فيه أن الأقدار أعظم عظة لعموم الخلق من الأمر والنهي، ولكن المؤمن عظته بالكلام الإلهي أعظم، ومما جرت به الأقدار في ما ذكره القرآن: إن الخلق الذين لا يتعظون بالخبر والأمر والنهي لا يتعظون بالأقدار، وهذا نص قرآني بين في هذا الأمر.

ففي سورة الأعراف بين الله تعالى كيفية رفع الجبل فوق بني إسرائيل، فقال سبحانه: (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، ولكن هاهنا في سورة البقرة بين أنهم بعد ذهاب هذه الآية وهذا التهديد عادوا لما نهوا عنه (ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ).

والقرآن جاء فيه الكثير من ذكر عدم اتعاظ الخلق بالآيات القدرية حين أعرضت قلوبهم عن عظة الحق ونذارة الأنبياء، وهذه قضية قرآنية، قلما من تحدث عنها مع كثرتها.

ففي سورة الكهف يقول تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا).

وفي سورة الأنعام يقول تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ).

وفي سورة الإسراء يقول تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا).

وهذا كثير في القرآن.

فالأمم المعرضة عن موعظة الخطاب النبوي والقرآني لا تتعظ بموعظة القدر، وإذا اتعظت فهو لحين زوال البلاء، ثم تعود إلى ما كانت عليه من الغفلة.

سر القدر في جريان البلاء وآيات التنبيه والعظة أنها تجري خفية، ربما لا يلاحظها الخلق في ارتباطها بسلوكهم، مع أن المؤمن يلاحظ هذا وينتبه له، ولذلك كان من سنته صلى الله عليه وسلم الصلاة وقت هذه الأقدار المخيفة، والمنبهة.

لما طلب المشركون آية، كما في سورة الأنعام: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا) فرد الله عليهم بقوله: (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ).

بل بين بعد ذلك كما في السورة أنهم سيصدون الآيات وعدم الإيمان بها بحجج شركية كثيرة، منها قوله: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ).

خفاء الآيات حين قومها يوجب على الأنبياء، ثم أتباعهم أن ينبهوا الخلق عليها، تذكرة لهم أن مقدمات الهلاك قد وقعت، ولم يبق إلا الهلاك القادم.

هنا يحدث تكذيب هذا المعنى من الطواغيت وأتباعهم، ولذلك قال القرآن عن فهمهم لهذه الآيات: (وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ).

ولذك زاد قساوة قلوبهم، كما قال تعالى: (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

العذاب الإلهي القادم على قوم لوط رآه قومه زينة جديدة، ومتعة سانحة، وغنيمة لا تفوت، ومع ذلك كان في الواقع هو العذاب.

كيف يفسق المترفون؟

يفسقون بالنعم، فيخرجون فيها عن حد الاعتدال، وهذا يحقق الفسق، وهو الخروج كما في أصل كلمة "الفسق" اللغوي.

وهذا يدل على معاني ما وقع في نفس قوم لوط، وهم يهرعون إليه ليفسقوا، فيرتعون بالنعم فسقاً خارجاً عن طاعة الله تعالى.

هذا بالنسبة للمؤمن نذارات، وبالنسبة للفسقة، والعصاة فرصة نعم وتلذذ وازدياد ترف.

فهذا القدر من العذاب مخبوء بالنعمة، والترف، والتلذذ، والتي تزيد من خلال مؤسسات الفسق، ورعاتها، وهيئاتها.

هذا القدر من تفسير البلاء، وارتباطه قدره مع شرعه هو مما ينكره الكفرة (**قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ**) وهو على معنى قولهم: (**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**).

فهذه قضايا مهمة للداعي، وهو عدم ربط الهداية للخلق بقدر قادم، يصلح حال العاصي، أقصد الجموع منهم، ففتح باب البلاء للناس كفتح باب العطاء، والذي قال الله فيه: (**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ**) وأنت سترى الجموع التي فسدت بالعطاء ستفسد بالبلاء.

هذا إذا كان القدر بلاءً مع شدة، فكيف إذا كان القدر بلاءً مع فتن الدنيا وزينتها كما سيكون مع الدجال (**معه جنة ونار**) [صحيح مسلم].

الذي يتعظ من البلاء هو صاحب الإيمان الذي يراقب يد الله تعالى في الوجود، والذي يفهم حكمة الله في الأقدار.

سر القدر في القرآن الكريم (٦)

[١٠ مايو ٢٠١٨ — ٢٥ شعبان ١٤٣٩]

قال تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ).

للنعم أقدارها، وسننها في البقاء والزوال، ويجب على العبد مراعاة ذلك، ليحفظ بقاء النعمة، أو يحقق قدومها إن غابت عنه، وهذه الأقدار تخالف أهواء الناس، والعاقل من لا يتابع هواه، ولا يضيع ما ينفعه من أجل شهوته.

النفس البشرية في فطرتها تحب التغيير، ويصيبها الملل مع جريان العادة، حتى لو كانت في النعيم، ولكن هذا له ضريبته وثمنه.

في هذه الآية بين سبحانه نعمه على بني إسرائيل، وذلك بنزول المن والسلوى عليهم، يأكلون ويتمتعون، ولكن تاقت نفوسهم لحال آخر، وطعام قديم قد ألفوه، مع أنه مرتبط –هذا الطعام القديم– بحال الذلة والهوان، فبان للناظر أن هذا الشوق لما هو أدنى من الطعام هو رغبة بتغير الحال كذلك، وذلك لهوان هذه النفوس واستمرائها الذلة، فكان لهم ما طلبوا.

تطلبك لحال ما يرتبط بشهواتك يعني دفع الثمن من قيمتك في الحياة، ولا يعني هذا أن الحال الآخر هو خير لك في نفسه، بل قد يكون أدنى وأسفل.

ما هو مطلوب هو الصبر، فعلة مطلب بني إسرائيل (لَن نَّصْبِرَ).

البحث عن حال آخر له ارتباط في المقام، وله تعلق بقيمة المرء في الدارين ليس سيئاً، بل هو أمر مرغوب به شرعاً، ولكن الحديث هنا عن اللذة، "الطعام"، وهذا يسيطر على أصحاب الأهواء، حتى يكون مطلب بطونهم أهم من كونهم أذلة أو أعزة، وهذا هو الخبث المنهي عنه شرعاً.

القدر مخبوء وراء اختيارك، وسره مرتبط بقلبك، إحساناً بإحسان، وشراً بشر، فمن طلب شهوة بطنه دفع ثمنها ذلة وهواناً، ومن طلب مطلب قلبه تعب ولكن أصاب عزة ومقاماً.

ارتباط القدر بالمعاني سر مجهول لدى الخلق، فالأكثرون ينتبهون لارتباط العمل الموصل للنتيجة، فمن جد وجد، ومن طلب الشيء من خلال سننه وصل إليه، لكن يجهلون ارتباط المعاني بما في نفوسهم.

واحد يطلب المال، فيعمل له، فيصل إليه، ولكن هل يفهم سر القدر في حاله ومقامه بعد الحصول على المال.

القرآن قال لبني إسرائيل: (**فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ**)، فما أردته ستأخذه، (**مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ**) ولكن هناك حيث يتحقق له ما سأل شيء آخر (**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**).

لا تغفل النظر إلى الغني، ولا تغفل النظر لصاحب الجاه، أن لهم من هذه الأحوال حين سعوا إليها بوسائل الشر.

وحين نقول: طلبها بوسائل الشر، لا يقصد بذلك العمل ونوعه فقط، ولكن مع ذلك، وهو مهم جداً، يكون معاني القلوب.

معاني القلوب لها دور عظيم في اختيار نوع الحال الذي تكونه بعد الوصول لمطلوبك.

لقد تأملت هذا في أقدار العاملين للإسلام، فوجدت أن صلاح النية له أكبر حظ في إصابة المراد، حتى وهذا المراد يغيب في لحظته الأولى، لسنن تتداخل على المطلوب، وَمِمَّا لا شك فيه أننا نتحدث هنا عما هو من باب الرأي، وما هو الحسن والأحسن.

اشتغال الناس بالسنن الظاهرة لا يعيب، وليس من الخطأ، فبه يقترب المرء من معرفة المآلات، وبها يقع تصويب الفعل وطلبه واختياره، ولكن يجب التنبيه على عامل النية والقصد (**إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ**) وهذا وهم في الأسر والقيد لقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ**).

النية تصوب الفعل، وتهديه إلى التوفيق الإلهي، ولذلك يعجز البعض عن رؤية الخير المنبثق من الشر، كما قال سبحانه وتعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**).

وهنا يبرز حديث "**هل يأتي الخير بالشر؟**" وهو حديث جليل، لا بد من تدارسه وفهمه، ويبقى السؤال: هل يأتي الشر بالخير؟.

كم من أقدار جاءت في بدايتها بالألم، وأصابتها بالتعب والشر والمصائب، ثم كانت كالنار التي تورث الكثير من سماد الأرض، وينبت منها الخير العظيم.

ما ضابط هذا؟

إنه نية الفاعل الصالحة.

وهذا مدخل لقضايا متعددة، اللهم أعن على جلائها وبيانها.

سر القدر في القرآن الكريم (٧)

[٢٢ يونيو ٢٠١٨ – ٩ شوال ١٤٣٩]

يقول الطحاوي رحمه الله: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان فالحذر كل الحذر من نظر أو فكر، أو وسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه، كما قال في كتابه: (**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**). {الأنبياء: ٢٣}".

هذا القول من الطحاوي رحمه الله مأخوذ من مجموع نصوص قرآنية، قالها الله تعالى في كتابه في أحوال متعددة، وأجلاها ما قيل في قصص الأنبياء، في غيرها كذلك، وما أحاوله هنا تحت هذا العنوان "**سر القدر في القرآن الكريم**" أن يعلم العاملون لدين الله وجه هذا السر، واحتجابه بوجوه عجيبة، تدور المقدمات في بعض وجوهها على معنى يخالف ظاهرها، بل يخالف مطالب المؤمنين الآنية، فتقوم الأقدار وراء الجدر من الخفاء، لتأتي على وجه من عجائب الجريان السنني، وهذا الجريان هو الوعد الإلهي، ينكره الجاهلون، ويظنونه ضرباً من ضروب الجنون والغفلة، والمؤمنون يرتقبونه، ويختبر ارتقابهم هذا بوجوه من المخالفة التي تمتحن إيمانهم بوعد الله تعالى لهم.

تأملت مواطن النصر للأنبياء في القرآن فوجدتها تصل إليهم بعد لحظات طويلة من الارتقاب، حتى يقع التساؤل: متى نصر الله؟، وهذا السؤال جزماً عند ذوي العقول لا يكون في حالة تجمع نقاط النصر، ومواد الوعد، بل من عجائبه أن المقدمات توحي بأن ما يُرتقب يبتعد، ولا يقترب، ثم يأتي الوعد الإلهي من وجوه لا يظن بها أنها مصدر النصر والفتح.

ومن هنا يقع الشك النفاقي، ويقع اليأس القلبي، ويتكلم الناس بكلام الاستهزاء: (**إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**)، وذلك كله لأن ما يظن تحققه تبتعد ملامحه وسماته ومقدماته، ولا تتكاثر في عين الناس.

هذا كله هو ما ينشئ كلام الجاهلين عن هذا الباب، حتى ليخيل إليهم لفساد نفوسهم وعقولهم أن هذا من الكهانة والتخيل والسحر، والأمر ليس كذلك، لكنه مراقبة سنة الله في هذا الباب العظيم، والذي عماده التوكل على الله، وحسن الظن به، وتصديق وعده وكلامه.

لعل محاولاتي تجميع هذه المادة نقطة نقطة من القرآن الكريم لتصل في مجموعها لفهم ملامح هذا السر الذي سيبقى فوق طاقات البشر ورؤاهم، حتى المؤمنين يتعاملون بمطلق الوعد مع يقينهم بجهلهم في أفراده وملامحه الدقيقة، لكني وجدت استعجالاً في شرح هذه القضية على الوجه الذي بدأت بسلوك طريقه.

من أجل هذا سأكتب بعض ما يكشف مسرعاً عن هذا الأمر، ثم أعود إلى ما بدأت به، عسى أن يكرمني الله بالتوفيق والهدى، وشرح ما يحبه الله من كتابه.

- في قصة لوط عليه السلام، يبين القرآن الكريم حادثة دخول الملائكة عليه، فلم يرَ لوط عليه السلام إلا بلاءً قادماً، ويوماً عصيباً قاهراً لنفسه، فيقول القرآن في هذا في سورة هود: (**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**).

هذا يعني أن الله أخفى نصره للوط عليه السلام تحت ستار البلاء والهم والضيق، مع أن لوط من أعلم أهل الأرض بربه يومها بعد إبراهيم عليه السلام، ومع ذلك خفي عليه سر النصر، ولم يكشفه الله تعالى له، والمؤمن يعلم سبب هذا من وجوه: أهمها كبرياء الله تعالى الذي يحب التفرد بعلم لا يعطيه لأحد، ليبقى العبد عبداً مهما علم، ويبقى الرب رباً بقدوسيته وأوليته وآخريته.

ولوط عليه السلام موعود بالنصر والغلبة، وهو موقن بهذا، وهذا من الإيمان الممتحن المبتلى في صدر العبد الصالح، ومن البلاء في هذا الإيمان أن يأتي على وجه لم يرتقبه العبد، ولا يعرف وجهه، بل ويأتي على غير موعد مضروب.

وهذا الذي وقع مع لوط عليه السلام فيه وجه آخر، وهو أن النصر للوط عليه السلام فيه العذاب لأعدائه، ولا يقع العذاب حتى يقع الإعذار الذي يتم به قيام الحجة في أعلى مقاماتها، وهذا تجده في سورة الحجر.

تأمل قوله تعالى: (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ).

ينبئك هذا الخبر أن الأنبياء أعذروا إلى قومهم إلى الغاية، حتى وقع من لوط قوله: (هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ).

ولم يذكر الله تعالى جوابهم هنا، وإنما ذكره في سورة هود: (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ).

المهم هاهنا أن البلاء مقترن بأمرين:

أولاهما: (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا)، وثانيهما: انتهاء العذر إلى غايته.

وهذا يعطي وجه النصر الإلهي معنى الإيمان بالنسبة لأهل البلاء، وأنه من عند الله تعالى دون غيره.

وخفاء العطاء بستر البلاء شرح مع القرآن في قصة مريم عليها السلام:

فالملائكة رسل الله يقولون لها: (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ) آل عمران

وهي تقول: (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا).

وكذلك في صلح الحديبية، إذ رأوه إهانة، والله سماه فتحاً.

هذا التعامل الإلهي مع أعقل عبيده وأذكاهم، وأطهرهم قلباً، وذلك لأنه القدوس والمتكبر (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا).

سر القدر في القرآن الكريم (٨)

[٢٤ يونيو ٢٠١٨ – ١١ شوال ١٤٣٩]

الانعطافات في النهايات

هذا سر عجيب، وهو من نوع الامتحان الرباني لعبيده المؤمنين، وإغراء لأعدائه لأخذهم وإذهابهم، فتأمل معي هذه الحوادث القدرية في هذا الباب:

– لما جاء موسى عليه السلام لميقات ربه، ففي التفصيل لموعد اللقاء، فصل القرآن الكريم بين زمنين ووقتين، فقال سبحانه وتعالى كما في سورة الأعراف: (وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)، وهذا تفصيل ما أجمله في سورة البقرة (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)، وهذا الموعد ذكره الله تعالى في سورة طه، وفيه خبر آخر، فقال سبحانه: (وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ).

ويفهم من هذه الآيات أن الله واعد موسى بعد ثلاثين ليلة، ففهم الكليم عليه السلام أن الموعد يقع عند تمام الثلاثين، والحق أن الموعد بعد الثلاثين، وبعد الثلاثين بلا تعيين، فجاء موسى عليه السلام عند تمام الثلاثين، وسبب هذا الشوق وطلب الرضى والقبول (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ).

وهذا من نوع الامتحان لعبيده، إذ في ذلك امتحان الصبر، ومزيد الطلب، وفيه كذلك لوعة الانتظار، وفي النهايات يكون التعب، ويزيد الشوق، ويمتحن الصبر، والناس في البدايات لهم نوازع الإرادة، وحماسها، فتقوى النفس، ثم يبدأ الرهق، ومعه يزداد شوق النتائج، حتى إذا قارب الوصول تكاد النفس تذهب، وحينها يأتي طلب المزيد، فيكون الامتحان أشد وأتعب، فيقع بذلك فتنة النفوس والقلوب والإرادات.

مع موسى الكليم وقع الامتثال، وزاد الشوق، وتجددت الإرادة، فوقع له اللقاء، وكلمه ربه، وحصل له العطاء، فقال الله له: (يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي) فهنيئاً له مقامات الرضا والقبول وحصول العطاء.

- هذه الانعطافة رأيناها في صلح الحديبية، فقد وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بوعد الله، أنهم سيدخلون المسجد الحرام، وفي ذلك قيد عظيم (**لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ**).

فقيد الدخول: "**آمنين**"، "**لا تخافون**".

وهذا المعنى المكرر لا يكون مع قدومهم في هذا العام، وقريش تتلظى بالغيظ والكره وترقب القتال والصدام، مع أن الحرب قد أهلكتها، لكنها النفوس.

فكان الوعد، أنكم ستدخلون المسجد الحرام، فطارت النفوس شوقاً، وتشوفت لهذا الوعد العظيم، فسارت وهي على يقين الوعد، وصدق وقوعه كما فهمته، والنفوس تحب تأويل الأحاديث كما تشتهيها، كما هو شأن صاحب الرؤيا، يبحث عمن يفسره لها على وجه يحبه، ويرضاه، ويسعده.

فخرجوا على هذا المعنى الذي في نفوسهم، فكان ما كان، فغضبوا، وحديثهم في هذا الأمر مشهور معلوم.

فكان في هذا بلاء الإيمان في قلوبهم، وليقع الوعد القدري على معانٍ أخرى أجل من فرحهم وسعادتهم، لا ليقع فقط فرحة دخول المسجد للعمرة، ولكن لفتح مكة فتكون دار إسلام، ولمعانٍ أخرى ذكرها الله في كتابه (**وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ**) فرحمة الله بالمؤمنين أن يوقع أعمالهم على وجه من الخير لهم، حتى وهم لا يدركون الكثير من هذا الخير، ذلك لخفائه (**بِغَيْرِ عِلْمٍ**) كما قال تعالى.

هذه الانعطافات في النهايات تصنع اليأس عند البعض، لحبهم العاجلة، وكذلك لعدم رعايتهم لمعاني القدر الذي يجريه الله تعالى للمؤمنين، فالذين رأوا فيما جرى من الحوادث في هذا الزمن، وأن ما وقع هو عودة الشر، بل ازداد الامر سوءاً، لم يدركوا أن ما وقع هو خير، فلو تم الأمر في بعض وجوهه على ما وقع، وكانت النهاية، لكان في ذلك اختلاط الشر بالخير، ولكنها انعطافة النهايات، ليقع الخير على وجه من الوجوه التي يحبها الله، حتى ولو وقع ما قاله تعالى عن أمر بدر الكبرى (**وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ**) وذلك ليخلص المؤمنون إلى سبيل واحد في مواجهة الجاهلية، وهو الدم والقتل

والجهاد والمواجهة، وهذا يحقق الخير للمؤمنين، ويقع في ذلك ما قدره الله على وجه يحبه الله، ونصر حقيقي للمؤمنين.

فهرست المقالات